سعاد البين

لم تكـن تحلـم بأن تراه مجـدداً؛ فبعد أن ضاعت هي مـن يده، ظل هو أسيراً لها سنوات طويلة، وأُصيب بمرض نفسي مقارب للجنون.

قبل عشرة أشـهر تحديداً، اسـتطاع أن يتجاوز الأزمة إلى حدٍّ ما، وأن يضع قدمه على أول الطريق لرسم مستقبله الذي كان يحلم به معها، وهو أن يكون شاعراً مشهوراً.

واليوم هو موعده الأول مع إحدى دور النشر، عرضت عليه أن تنشر قصائـده في كتـاب، بعد أن نشر معظمها في الصحـف والمجلات المحلية والعربية.

كان سعيداً جداً بهذه الخطوة. حمل أوراقه في يده، وبرفقته زميل دربه الذي ساعده كثيراً في اجتياز أزمته.

صعدا إلى الباص، الذي يحمل ستة ركاب، ثلاثة في كل كرسي، وفي اتجاهين متقابلين. جلس بين زميله الذي جلس قرب الباب، ورجل آخر قرب النافذة.

كانت جالسة على الكرسي المقابل.

عندما رأته برقت عيناها، وأوشكت على البكاء. تسارعت ضربات قلبها. ضغطت كفيها بكل قوتها، تحاول أن تتمالك أعصابها.

لم يعرفها. ولم تحاول أن تجذب انتباهه. ماذا ستقول وقد خذلته وتزوجت مُكرَهة ابن عمها الذي أمرها بارتداء الخمار والجلباب عند خروجها من البيت، والذي لا تخرج منه إلا للضرورة القصوى.

احتضنته برموش عينيها. لم تطق صبراً، فقررت أن تناديه وتكلمه. لكن طفلها الذي في أحشائها ذكّرها بأبيه، محاولاً إشغالها عن حبيب عمرها. أُصيبت ببعض الغثيان والدوار، فقد كانت في شهرها الثالث.

الطريق مزدحم جداً، والسيارات تتحرك ببطء شديد. كان هو منشغلاً مع صديقه، يقرأ له بصوت خافت مختارات من قصائده الشعرية.

– الله الله! جميل! جميل ما تقوله يا أستاذ!

كان هذا صوت السائق، الذي كان يسترق السمع إليهما.

– هل لي أن أطفئ الكاسيت، وأن تطربنا بصوت عالٍ بهذه الترنيمات الرائعة؟ فأنا خريج أدب إنجليزي، ومتذوق للشعر والأدب؛ ولكن ظروف الحياة أجبرتني على هذه المهنة الشاقة والمتعبة! أسمِعنا أسمِعنا يا أستاذ وأطربنا!

كان متوتراً جداً، والدقيقة تمرّ عليه كأنها ساعات. أما هي فكانت تتمنى أن تتوقف الكرة الأرضية عن الدوران، وأن يظل أمامها إلى ما لا نهاية.

بدأ يقرأ بصوت عالٍ. قصيدة تلو الأخرى. كانت تحرك شفتيها من تحت الخمار تجاريه. حتى لقد خفّت مشاكسة جنينها، طرباً لذكرياتها وحنينها. أغلب القصائد التي قرأها كانت إهداءات لها أثناء دراستهما معاً.

وصل صديقه إلى جوار مقر عمله، فترجَّلَ من الباص، بينما تابع هو طريقه نحو دار النشر. أثناء ترتيب أوراقه لمحت حبيبته عنوان الديوان؛ فإذا به اسمها.

ترجّـل من الباص. ترجّلـت هي أيضاً وراحت تتبعـه. وفي حقيبتها ورقة بيضاء ملفوفة بها الأشعة الطبية الخاصة بها. أخذتها وطوتها:

- شهاب!

نادته... فالتفت متعجباً!

- لقد سقطت منك هذه الورقة!

تأملها، وقد شعر بشيء يشـده إليها. راح يحدث نفسه: هل أصبحتَ تراها في كل النساء؟! وهل أصواتهن صوتها؟!... أقنع نفسه بأنه ما يزال تحت تأثير صدمة فراقها، وأراد أن يخرج من وهمه ويعود إلى الواقع.

شـكرها، وبشـعور لا إرادي خلعت القفاز من يدهـا وصافحته!... كأنها تضمه إلى صدرها! سرت كهرباء شديدة في عروقه، وتملكته مشاعر ليست غريبة عليه؛ ولكنه حاول أن يتجاهلها.

- أتمنى أن أراكَ مرة أخرى

قالتها بصوت شجي حزين، وانصرفت. ناداها:

- كيف عرفتِ اسمي؟!!

نظرت إليه بعينين باسمتين:

- من الورقة.

مشى قليلاً، ونظر في الورقة. كانت بيضاء ناصعة!

لم يصدق أنها هي! نظر وراءه فوجدها قد تجاوزت الشارع الآخر متجهة إلى السوق. ناداها بأعلى صوته، وراح يلحق بها، مفتشاً عنها في الوجوه، لكنها اختفت وتاهت في الزحام.

2012 /4 /22